مصر الكبيرة وقرارها الصغير

د. عبدالستار قاسم

26/ شعبان/ 1421

وأخيرا قامت مصر بخطوة تجاه إسرائيل واستدعت سفيرها من تل أبيب. إنها خطوة في الاتجاه الصحيح الذي يجب أن يسود العلاقات مع الكيان الصهيوني لكنها غير كافية ولا تتنسب مع دور مصر التاريخي ولا مع محورية القرار المصري في إدارة دفة الحدث والنشاط السياسيين في المنطقة. سبق لمصر أن استدعت سفيرها من تل أبيب ولم يعد إلا بعد أربع سنوات. لا استدعاء السفير أثر على مجريات الحدث ولا طول الغياب. استطاعت إسرائيل أن تعيش بدون سفير مصري واستمرت في احتلالها لجنوب لبنان. الحدث على الساحة الفلسطينية أكبر بكثير من استدعاء سفير. إنه عمل صغير لا يتناسب مع حجم مصر الذي يمتد في عيون العرب من المحيط إلى الخليج.

هناك إدراك لدى من يواكب تطورات الأمور للأوضاع في الوطن العربي وكذلك للوضع في مصر من مختلف الجوانب الحياتية. الوضع الاقتصادي لمصر مثلا لا يمكنها من القيام بعمل أضخم مما تتحمل، وارتباطاتها السياسية طوقت حريتها في القيام بتلك الأعمال المتناسبة مع التوقعات، وخطاها التقنية ما زالت تترهل خلف العالم وخلف العدو الصهيوني. وربما تلقي الأوضاع الاجتماعية بظل ثقيل على الكاهل. مصر ليست متطورة اقتصاديا ولا هي متحررة من الديون الخارجية ولا المساعدات، وقدرتها العسكرية ، على الرغم من امتلاكها لأسلحة متطورة، ما زالت دون مستوى الردع، والفئات الاجتماعية المختلفة ما زالت تلح من أجل تحسين أحوالها المعيشية. مصر تئن من أعباء ثقيلة، ولا أظن أن هناك من يتجاهل هذا الأمر أو يحاول القفز عنه.

لكن ألم تفكر مصر بأنه من المحتمل أن الاطار السياسي الذي وضعت نشاطها ضمنه يشكل عقبة رئيسة نحو تحررها ويعرقل قدرتها على لعب دورها التاريخي والمركزي المتوقع منها؟ وألم تفكر أنه من المحتمل أن عددا من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها قد صنعها لها غيرها من أجل أن تبقى أسيرة إطار سياسي معين؟ أليست أمريكا هي التي تعد الشعوب بالرخاء والذهب وتغرقها في الواقع في الديون والتخبطات الاقتصادية؟ ألم تعد مصر بالخيرات منذ أواخر السبعينيات لقاء أهداف سياسية؟ لقد مضى الآن أكثر من عشرين عاما على وعودات أمريكا، فهل سألت مصر نفسها عن الفرص البديلة للدعم الأمريكي وماذا يمكن أن تحقق من خلالها؟ وهل كل ما حصلت عليه مصر من مساعدات وقروض وتسهيلات في المديونية يعدل في فوائده تلك الأضرار الناجمة عن تراجعها في القيام بدورها العربي المتوقع منها والذي تتوقعه هي نفسها من نفسها؟

هناك من يجادل بأن مصر تقوم بدورها التاريخي الآن وذلك من خلال ما يسمونه بعملية السلام. فهي حسب قولهم تعمل من خلال هذا الدور على تجنيب العرب الحروب والدمار وعلى فتح المجال أمام التقدم الاقتصادي والعمراني. لقد نزف الدم العربي عبر سنوات طويلة دون جدوى، وتم توظيف طاقات اقتصادية ضخمة في المجهود الحربي، وحان الوقت لأن تضع الحرب أوزارها ولأن ينعم أطفال الدول المتحاربة بالهدوء والمحبة والسلام. وبهذا تكون مصر قد استمرت في القيام بدورها التاريخي. إنه يقال أنها اضطلعت بدورها التاريخي هذا منذ السبعينيات أو بالتحديد بعد حرب تشرين الأول وهاجمها العرب بدورهم وقاطعوها ونقلوا مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس، لكنهم أيقنوا في النهاية أن مصر أرادت للأمة الخير فلحقوا بها.

هذا جدل يمكن أن يكون منطقيا لو كان مستقبل الأمة العربية مهددا و أن إسرائيل قادرة فعلا على التهام الوطن العربي. عملية التفاوض والسلام مع إسرائيل لم تكن يوما من أجل بقاء العرب وإنما من أجل بقاء إسرائيل ولا منعا لاسرائيل من تدمير العرب وإنما منعا للعرب من تدمير إسرائيل، ولم تكن دفاعا عن العرب ضد تهديدات وإنما دفاعا عن إسرائيل ضد تهديدات العرب، ولم تكن بغرض قبول العرب في المنطقة وتطبيع العلاقات معهم وإنما بغرض قبول إسرائيل وتطبيع العلاقات معها. لم يكن العرب هم الباحثون عن حدود آمنة واتفاقيات أمنية تقوم بموجبها إسرائيل بملاحقة "الثوار" الاسرائيليين الذين يهددون أمن الأمة العربية، ولا هم الذين طلبوا حرية الملاحة والمنعة الاقليمية. هذه جميعها كانت المشاكل التي تؤرق إسرائيل ولم تخدم عملية السلام حتى الآن إلا المصالح الاسرائيلية. لم نجد أن أمة العرب قد قفزت خطوات هائلة في تقدمها الاقتصادي ولا في المجالات العلمية والتقنية. نحن ما زلنا نعاني إلى حد كبير من أسباب التخلف والتبعية والتهميش على الساحة ةالدولية.

الحديث عن السلام مع إسرائيل كخدمة للأمن القومي العربي والرخاء ورغد العيش لا يخلو من السذاجة. إسرائيل ليست دولة عظمى، وحتى أنها ليست دولة عادية وإنما عبارة عن دويلة لا تملك مقومات استراتيجية للبقاء. إنها دويلة في المساحة ودويلة في عدد السكان، ومهما عظم اقتصادها فانه لن يتعدى حجمها. صحيح أنها تملك قوة عسكرية متطورة ورادعة، لكن أسرار التطوير العسكري وصناعة أسلحة الدمار الشامل لم تعد أسرارا. قدرة العرب على التطوير العسكري لا تتم ترجمتها واقعا ليس بسبب الجهل أو نقص في العلماء والخبراء وإنما بسبب غياب الارادة الحرة في اتخاذ القرار. إن أعظم مخزون استراتيجي تملكه إسرائيل في بقائها وهيمنتها هو ضعف العرب وغياب إرادتهم السياسية ولا رهان على استمرار العرب على هذا الحال من البؤس والشقاء، إنهم كغيرهم من الأمم، لا بد أن ينطلقوا يوما ويكسروا الأغلال. وإن لم يكن الحكام العرب هم قادة الانطلاق بالأمة فانهم سيكونون الضحايا التي تكتوي بنار الانفجار.

أما الظن بأن إسرائيل مدعومة من دول عظمى ولا يقوى العرب على تحديها فهو مجرد ظن. لا أمريكا ولا أوروبا على استعداد للتضحية بالمصالح من أجل إسرائيل. غدا عندما يهيء العرب لأنفسهم أجواء حريتهم وتتحول علاقاتهم مع دول الغرب إلى علاقات مصالح متبادلة بدل علاقة التبعية القائمة الآن فان إسرائيل ستصبح نقيض الرخاء وامتلاء الجيوب. أي أن دعم دول عظمى لاسرائيل الآن ناجم عن ضعف العرب لا عن مبدأ تتمسك به هذه الدول أو عن محبة تتدفق من بين الجوانح.

كعربي يحاول أن يفهم ما يدور حوله على اتساع هذا الوطن الكبير أشعر بالعار والضعة والهوان كلما تردد على مسمعي خبر جلوس العرب على طاولة مفاوضات مع إسرائيل. إنه من غير اللائق أن يجلس ذلك العملاق الذي تزخر سيرته بالتاريخ العظيم ويحمل في جوانبه العراقة والأصالة ويتمتع بامكانيات هائلة نحو التقدم والبناء مع ذلك القزم المصنّع من فئات مجمعة وواهية في التاريخ ولا تملك مقومات الاستمرار والبقاء. ليس القصد هنا الاستهانة بالعدو من حيث قدرته العسكرية الآنية، لكن استهانة به أمام أمة عربية حرة تشق طريقها نحو الوحدة والبناء. في هذا يكمن الدور التاريخي لمصر.

لا أظن أحدا يطلب من مصر أن تحشد جيوشها الآن وتهاجم إسرائيل. الحرب ليست سهلة وخوضها يتطلب الإعداد والتخطيط والتنسيق بين الدول العربية، ولا يبدو الآن أن هذه المتطلبات قد تم استيفاؤها. لكن الذي يريد أن يصنع السلام عليه أن يكون مستعدا للحرب. فمن لا يقوى على صنع الحرب لا يقوى على صنع السلام، ولا مفر إلا أن تفرض عليه الحلول فرضا. هذا ينطبق على مصر كما ينطبق على كل الدول العربية مجتمعة أو منفردة. سلام الضعفاء عبارة عن استسلام، وفي حال الأمة العربية إنه فقط يؤجل الصدام.

الإعداد المطلوب يبدأ أولا بلم شمل العرب، ومصر قادرة بالتعاون مع بعض الدول العربية على قيادة هذا العمل. لا نبغي ولا نتطلع إلى محاولات شبيهة بتلك التي حصلت في الخمسينات والستينات من هذا القرن، ولا نريد لم شمل يقوم على صراعات وخصومات. لكننا نتطلع إلى جهود نابعة من إرادة حرة وبمشاركة فعالة من دول عربية نحو تحقيق وحدة عربية. تجمعات العالم تكبر وعمالقته ترفع من قدراتها الاقتصادية والتقنية والعلمية، ولم يعد هناك مستقبل بدول صغيرة أو دويلات أو إقطاعيات، ولم تعد آليات تقود إلى التضامن العربي أو العمل العربي المشترك كافية. لا يسعف الأمة غير الوحدة، ليس تلك الوحدة التي تقوم بقرارات سياسية فجائية وإنما تلك التي تتم تدريجيا وعلى أسس علمية.

صحيح أنه لم يعد يجرؤ في الوطن العربي من يتحدث من الوحدة العربية كضرورة. لكن هذا جزء من هزائمنا على مختلف الصعد. التمسك بالوحدة ليس جريمة ولا هو بالعار، وإنما هو الفضيلة بعينها والإصرار على ما هو ممكن. لا أظن أن الوحدة ستحصل غدا، ولكن مجرد التوجه نحوها يصنع أجواء من التعاون العربي والعمل الجماعي أفضل بكثير من تلك الناجمة عن أفكار التضامن والعمل العربي المشترك. بإمكان مصر أن تصنع هذه الأجواء أو أن تكون عنصرا فعالا في صنعها. ولكن قبل أن تفعل لا بد من تحرير إرادتها السياسية. وهنا لا تفيد المزايدات ولا التصريحات الرنانة، وعلينا أن نقرّ أن مساعدات الغير أو العدو لا تتم بدون ثمن. وحتى يكون بمقدور مصر أن تفعل ذلك فإنها بحاجة إلى دعم عنصرين: الشارع العربي أو الجماهير والحكومات العربية. الشارع متعطش لمرحلة من التغيير في الوطن العربي تعيد إليه على الأقل جزءا من كرامته وتضعه على طريق التقدم، ولا أظنه سيتقاعس عن الوقوف مع أي قيادة عربية تسعى جادة نحو الوحدة العربية وتحظى بمصداقية. أما الدول العربية فستجد نفسها

في أجواء لا تمكنها من حجب مساعداتها وتعاونها. فوضع الأمة على المستوى الجماهيري قد اختلف جذريا عن الأيام الغابرة وأصبح الناس أرقى وعيا وأكثر قربا من بعضهم البعض، وأصبحت هناك قوى ضاغطة مختلفة على المستويات الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. انحسرت الانفعالية لصالح الكثير من العقلانية، والارتجالية تراجعت أمام التفكير العلمي.

الأجواء مهيأة لدور مصر التاريخي، ولكنها ليست مهيأة لا لسحب سفير ولا لمفاوضات أو اتفاقيات سلام. قزمت اتفاقيات السلام دور مصر وأضاعت الكثير من هيبة مصر ورئيسها. إذ لم يكن من اللائق في العيون العربية أن يجالس ذلك الذي يطاول الهرم الأعظم ذلك الصهيوني الذي أبى التاريخ أن يخط له سطورا.

إذا قررت مصر أن تسير بإرادة حرة فإنه بإمكانها وعبر مسيرتها نحو وحدة العرب أو بعض دولهم أن تساهم بفاعلية في التحشيد السياسي والاقتصادي والعسكري. إقتصاديات عربية منفصلة تبقى ضعيفة وذلك هو شأن الجيوش والجهود السياسية. مواجهة التحديات ومن ضمنها إسرائيل يستدعي التأسيس المتين والإعداد على مختلف الميادين، وذلك بالضرورة يعني البناء الاقتصادي والأمن الغذائي والتصنيع المدني والتصنيع العسكري وتطوير مراكز التحصيل العلمي والبحث العلمي والتطوير الاجتماعي وصنع أجواء ا لحرية الضرورية للإبداع. في هذا تتجلى الإرادة العربية، وهو ما تخشاه إسرائيل والذين يقفون خلفها.

استدعاء سفير لا يهز إسرائيل ولا يردعها، والهرولة إلى الأمم المتحدة ومجلس أمنها لن يفيدنا. عصبة الأمم أغرقتنا في التجزئة، وأغرقتنا الأمم المتحدة في الحروب والخصومات وسفك الدماء. لا أقول أن علينا هجران الساحة الدولية، لكن العمل عليها يجب ألا ينسينا مهامنا في بناء أنفسنا. وكلماتنا على الساحة الدولية لن يكون لها في الحقيقة رنين بدون قوة ذاتية ترهب عدونا وتكسبنا الاحترام. تحت الوضع الحالي، لا يقيم لنا العدو وزنا ولا العالم ينظر إلينا باحترام. ولولا أننا كذلك لما جرؤت إسرائيل على التمادي في عدوانها وطغيانها.

ومن الجدير ذكره أن تتفيه الأمور ليس عملا إبداعيا ولا يعود بالنفع على أحد. هناك خلل كبير تعاني منه الأمة، لكن علينا أن ندرك أن الهزيمة ليست قدرنا ولا أمريكا هي مخلصنا. الاستسلام لحالة الضعف لن يولد إلا المزيد من الضعف، والاعتماد على الآخرين لن يولد إلا مزيدا من الاستنزاف، والإستهتار بدعوات النهوض لن يعود إلا بضرر على الجميع. انطلقت دعوات من هذه الجهة أو تلك تتسم بنوع من السذاجة العملية لكنها لا تخلو من الفكرة الصائبة. فمثلا دعا البعض إلى حشد الجيوش وشن الحرب فورا على إسرائيل. هذه دعوة لا يمكن تلبيتها فورا، لكنها تحوي في داخلها فكرة الحشد على مختلف الصعد وبصورة تدريجية وعلمية مما يخيف العدو ويدفعه إلى مراجعة حساباته. أما أن يتم الاستهتار بالفكرة والدعوة وصاحبها ليس في ذلك مما يخدم غرضنا عاما.

بالتأكيد نحن لا نريد أن نحارب حتى آخر جندي مصري، ولا نريد أن نحارب من أجل الحرب، والأفضل أن نتجنب الحروب إذا استطعنا تحقيق أهدافنا بوسيلة أخرى. إنما تبقى المسألة ضمن قدرة مصر على جميع العرب أو بعض منهم وبالتعاون مع دول أخرى لها تأثير على الساحة العربية. والهدف ليس التضحية باقتصاد مصر أو بشباب مصر وإنما أن نصل إلى وضع نضحي فيها معا بدون تردد أو وجل إذا لزمت التضحيات، ونقطف فيه ثمار العمل الجماعي الخلاق. ومن المفروض ألا نبقى أسرى الماضي ونسترجع الأيام المؤلمة التي عانت فيها شعوب عربية بينما عاشت شعوب أخرى وكأن الأمر لا يهمها. لا أظن أن الوقت الآن هو الوقت الذي مضى، ولا الوضع العربي الآن بقي واقفا بدون حراك.

وفي النهاية أوكد على دور مصر وعلى مسؤولية الرئيس المصري ومعاونيه. نحن لا نتكلم عن عظمة الدور المصري من قبيل المجاملة أو المديح أو التبجيل، وإنما نتكلم عن حقيقة وواقع والأمل يحدونا بأن لا تتخلى مصر عن الحقيقة لصالح الوهم أو الضغوطات الخارجية. وعندما يوجه أحد الانتقادات لا أظنه أنه ينطلق من أحقاد أو سوء نوايا، وإنما من غيرة على مصر وتاريخها وريادتها. والجميع يتوقع أن يكون قرار مصر متناسبا مع حجمها.